المصـــــدر :	الحياة		
التـــاريخ :	10-02-2007	العـــدد :	16017
الصفحـات :	11	المسلسل :	61

أول "قيصر" روسي يزور المنطقة للمشاركة في حل مشاكلها

سليم نصار *

■ في أول زيارة يقوم بها رئيس روسي للسعودية، يصل غداً الأحد الى الرياض فلاديمير بوتين، على رأس وفد كبير بهدف اجراء محادثات سياسية واقتصادية مع كبار المسؤولين.

وتأتي هذه الزيارة رداً على زيارة قام بها لموسكو منتصف أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٣، ولي العهد آنذاك الملك عبدالله بن عبدالعزيز. ومن المؤكد ان توقيت زيارة بوتين مرتبط بعوامل اقليمية ودولية عدة فرضتها حاجة روسيا الى التعاون بشأن الأوضاع الأمنية في العراق وضرورات استئناف مفاوضات السلام لقضية الشرق الأوسط، وأهمية التوصل الى حل دبلوماسي لمشكلة السلاح النووي الايراني، والحؤول دون انفجار حرب مذهبية في لبنان. اضافة الى المساعي الآيلة الى استقرار أسعار النفط على نحو يمنع الانهيارات المتوقعة في الأسواق المالية.

عقب الإعلان عن توحيد نجد والحجاز تحت قيادة الملك عبدالعزيز سنة ١٩٢٦، كان الاتحاد السوفياتي في مقدم الدول التي اعترفت بالمملكة العربية السعودية (٢٨ شباط/ فبراير ١٩٣٠)، وفي سبيل تمتين أواصر العلاقات، أرسل العاهل السعودي نجله الأمير فيصل في جولات متواصلة شملت عدداً من العواصم التي اعترفت بالحكم الجديد. ومع أنه استقبل بالترحيب والتكريم في قصر الكرملين، إلا أن موسكو قامت بخطوة مفاجئة عندما استدعت ممثلها الدبلوماسي من جدة بحجة التشاور. وكان ذلك بعد انقضاء أقل من سبع سنوات على مهمته في المملكة. والملفت ان فترة «التشاور» استمرت أكثر من ٥٣ سنة، أي الى حين انهيار النظام الشيوعي، واستئناف العلاقات الدبلوماسية مطلع التسعينات.

ومع أن مسألة سحب الوزير المفوض السوفياتي من جدة بقيت لغزاً محيراً، إلا أن بعض شهود تلك المرحلة يعزونها الى أسباب تتعلق باكتشاف الدبلوماسي في القدس وهو يعتمر القلنسوة. وكان الشاهد على ذلك تاجر فلسطيني يقيم في المملكة ويعرف جيداً الوزير المفوض. ولقد ازدادت شكوك عندما تهرب الدبلوماسي من مصافحته وتظاهر بأن محدثه أخطأ بينه وبين شخص آخر. وتفادياً لحدوث أزمة قد تنشأ بين البلدين بسبب احتمال طلب استبعاده كشخص غير مرغوب فيه، تولت موسكو هي عملية سحبه بحجة «التشاور». وهكذا طويت صفحة غامضة من صفحات العلاقات الدبلوماسية بين المملكة والاتحاد السوفياتي!

في عهد الرئيس بلتسن شهدت العلاقات الروسية - الخليجية انفتاحاً سياسياً واقتصادياً توجته جولة رئيس الوزراء فيكتور تشيرنوميردين، الذي زار السعودية والكويت ودولة الامارات وسلطنة عمان. وركز خلال لقاءاته مع المسؤولين العرب على ضرورة عقد مؤتمر مدريد - ٢ للسلام، وعلى رغبة بلاده في استئناف دورها التقليدي كعنصر توازن داخل العالم العربي.

ولما خلفه في رئاسة الحكومة يفغيني بريماكوف حاول إعادة الاعتبار الى سمعة بلاده عن طريق الحفاظ على عظمة دورها، مؤكداً أن قوتها نابعة من مكانتها، وليس من أنظمتها، لا فرق أكانت شيوعية أم قومية أم ليبرالية. وكتب عقب خروجه من الحكم سلسلة مقالات أثنى فيها على التعاطي المتوازن الذي تلعبه السعودية داخل «أوبك»، وامتدح مبادرة ولي العهد في قمة بيروت العربية لكونها تؤمن السلام الشامل ضمن الاطار الاقليمي.

يصل الرئيس فلاديمير بوتين الى الرياض على متن طائرة الرئاسة رقم واحد التابعة لسلاح الجو الروسي. وهي من طراز «اليوشن ٩٦ - ٣٠٠» تولت شركة «دياموند» البريطانية التجهيزات تأثيثها وتزيين غرفها بأقمشة الحرير والمخمل وخشب الجوز. وقد كلفت عملية التجميل أكثر من عشرين مليون دولار، خصوصاً أن جوانب المغاسل والحمامات طليت بقشرة من ذهب. كما أن الجلد الايطالي الثمين استخدم بسخاء لتغطية كل المقاعد. وتتصدر غرفة الجلوس جدرانية نسجت عليها صورة القديس سيرجيوس، شفيع الشعب الروسي. وتحتها صندوق ذهبي يضم نسخاً عن الإنجيل وكتب للصلاة هي هدية قدمها له البطريرك الكسي الثاني. وبخلاف حكام روسيا الذين يفضلون إخفاء الحقائق المتعلقة بشؤونهم الخاصة، كسر بوتين هذه القاعدة عندما أصدر في آذار (مارس) سنة ٢٠٠٠ كتاباً عن سيرة حياته بعنوان «الشخص الأول».

يروي بوتين في هذا الكتاب بعض الطرائف عن جده الذي عمل طباخاً لدى لينين. ولما مات لينين استخدمه ستالين أيضاً، ووثق باخلاصه على اعتبار ان هذه المهنة كانت تحتاج الى ثقة «بيريا» أيضاً. كذلك تحدث عن طفولته فقال انها كانت أشبه بمأساة طويلة، ذلك أنه فقد شقيقيه قبل أن يولد. فالأول مات وهو في سن النمو. والآخر مات بمرض الدفتيريا (خناق) اثناء حصار الألمان لليننغراد مدة ٩٠٠ يوم. وقبل أن ينسحب الألمان أصيب والده فلاديمير سبيرودونفيتش بشظية قنبلة يدوية أقعدته عن العمل. وهكذا اضطرت والدته ماريا ايفانوفا الى العمل كبوابة في النهار وكطباخة في الليل من أجل إعانة الوالد المقعد. وفي أجواء الفقر والفاقة ولد فلاديمير في السابع من تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥٢. وأطلق عليه رفاقه لقب «فولوديا»، تحبباً. وبخلاف كل الذين سبقوه من حكام روسيا، فهو لا يتمتع بمهابة ستالين أو ضخامة بريجينيف، ولكنه نجح في الحفاظ على رشاقته بسبب اتقانه لرياضة الجودو، وينتقده سلفه غورباتشيف لأنه يعتمد على

المصـــــدر : الحياة
التـــاريخ : 10-02-2007 العـــدد : 16017
الصفحـات : 11 المسلسل : 61

شخصيته الغامضة في مقارعة خصومه السياسيين. أي شخصية كاتم أسرار الدولة منذ التحق بالـ«سي جي بي» في ألمانيا الشرقية مطلع الثمانينات. ويقول أصدقاؤه ان طبيعته الغامضة لم تتكون بسبب حرصه على كتم أسرار الاستخبارات، وانما بسبب الشقاء الذي عاناه في طفولته بحيث اختفت كلمات الضحك والفرح من قاموسه.

قبل أن يتوجه الى المنطقة، عقد الرئيس فلاديمير بوتين مؤتمراً صحافياً تحدث فيه عن انجازاته الداخلية والخارجية، وقال ان زيارته المقبلة الى السعودية وقطر والأردن، ستنشط علاقات روسيا بهذه الدول، وتساهم بشكل ايجابي في تسوية نزاع الشرق الأوسط ونفى أن يكون في نيته الدخول في منافسة على النفوذ مع أي طرف خارجي، ولكنه اعتبر ان مواقف روسيا حيال مسائل دولية حساسة متطابقة مع مواقف دول المنطقة. وكان بهذا الكلام يلمح الى افتتاحيات الصحف الأميركية التي رأت في الزيارة منافسة على النفوذ واختراقاً لخطوط حمراء رسمتها الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية.

في حديثه الأخير كان وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف، صريحاً وواضحاً بحيث أنه شرح تفاصيل النهج المستقل الذي يتبعه بوتين في المنطقة. وأكد أن المدخل الصحيح لتسوية المشكلة الفلسطينية - الاسرائيلية ينحصر في ضرورة اشراك اللاعبين الأساسيين في الجهود القائمة حالياً، خصوصاً مصر والسعودية والأردن. ورأى ان مسألة العراق لا تُحل خارج اطار الحوار الوطني الشامل. والحل يقتضي التعاون مع الأمم المتحدة والجامعة العربية وجيران العراق مثل إيران وسورية.

وحول زيارة الرئيس بوتين الى الرياض، قال لافروف: «ان التطور المهم الذي طرأ على علاقاتنا مع المملكة منذ تسعينات القرن الماضي، أظهر تطابق المواقف المتعلقة بالوضع الاقليمي والدولي. ومثل هذا التطابق يعزز الجهود الرامية الى نشر الأمن والاستقرار، وفتح آفاق الحوار بين الثقافات لمواجهة موجات التطرف والإرهاب».

ويستنتج من هذا الكلام ان بوتين عازم على فتح كل الملفات السياسية والاقتصادية، بدءاً من أزمة الشرق الأوسط... مروراً بحرب العراق... وانتهاء بأسعار الطاقة ومشتقاتها.

في ضوء هذه الطروحات يمكن اختصار «البوتينية» بالمحاور التالية:

أولاً - تأسيس نظام عالمي متعدد الأقطاب، تكون فيه روسيا نداً بين الأنداد وليس دولة عظمى. وهو يرى أن سياسة الحرب الباردة تحتاج دائماً الى وجود عدو خارجي تستغله أميركا لتحقيق الانضباط الأمني داخل البلاد، والانضباط العسكري بين الحلفاء، وإرغام الجنود على القبول بالتضحية التي لا حاجة اليها في الحقيقة (مثل أفغانستان والعراق). وهو يدعو الى تعزيز الديموقراطية والقانون الدولي بحيث تبقى الحقوق متساوية لأطراف العلاقات الدولية كافة.

ثانياً - يرى بوتين ان الظروف الحالية تستدعي بذل جهود مشتركة واهتمامات خاصة من المجتمع الدولي بهدف دفع عملية التسوية على المسارات كافة، خصوصاً المسار الفلسطيني - الاسرائيلي من دون تجاهل المسارين السوري واللبناني.

ويعتقد الرئيس بوتين ان المدخل الصحيح يجب أن يكون عبر الدعوة الى مؤتمر دولي للسلام في الشرق الأوسط على غرار مؤتمر مدريد. وهو يقترح توسيع عمل اللجنة الرباعية الدولية، وإيجاد آلية مشتركة دائمة تضم جهود مختلف الأطراف الفاعلة مثل السعودية ومصر والأردن.

هذا، ومن المتوقع أن يطرح بوتين في زيارته للسعودية وقطر والأردن، فكرة عقد اجتماعات للجنة الرباعية (الأمم المتحدة وروسيا والولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي) وانما بحضور طرفي النزاع الفلسطيني والاسرائيلي.

ثالثاً - أما بالشأن العراقي، فإن بوتين يرفض سياسة تصفية الحسابات التي تعتمدها الولايات المتحدة، بل يرى انه من الضروري تحقيق تسوية سياسية تقوم على أساس الوفاق الوطني والحوار بين مختلف الأطراف العراقية الشرعية.

رابعاً - يرى بوتين انه من حق اللبنانيين أن ينعموا بدولة مستقلة حرة بعيدة عن كل تبعية. وهو يرى أن بلاده صوتت في مجلس الأمن مع القرارات الصادرة في هذا الشأن. ولكن التحفظ جاء على المحكمة الدولية التي تريدها موسكو نزيهة وموضوعية وبعيدة عن التسييس. المهم في الموضوع ألا يؤدي تأسيس المحكمة الى انقسام جديد داخل المجتمع اللبناني.

ويرى أحد أعضاء الوفد المرافق، أن بوتين قد يطرح في قطر فكرة إقامة منتدى البلدان المصدرة للغاز الذي أطلقته طهران سنة ٢٠٠١ والذي يضم كبار منتجي الغاز في العالم، مثل روسيا وإيران وقطر والجزائر ونيجيريا. ويشعر الاتحاد الأوروبي بقلق شديد إزاء تلميح موسكو بالمشاركة في تجمع يضم مصدري الغاز، على اعتبار أن دول الاتحاد تستورد ربع حاجاتها من روسيا.

بقي السؤال المتعلق بأسباب توقيت جولة بوتين، وما إذا كان نجاحه سيوظف من أجل تجديد ولايته الثالثة (بعد تعديل الدستور) أم انه حقاً عازم على الانسحاب من الساحة السياسية في آذار (مارس) ٢٠٠٨ بعد أن يختار لخلافته واحداً من ثلاثة: رئيس ديوان الكرملين السابق ديمتري ميدفيديف أم وزير الدفاع سيرغي ايفانوف... أم فلاديمير بوتين!

---

* كاتب وصحافي لبناني